

اللغة العربية روح العقل العربي

The Arabic language is the essence of the Arab mind.

* د. قديدير بوجمعة

المركز الجامعي صالحى أحمد، النعامة، الجزائر.

البريد الإلكتروني: kedidir.anas@gmail.com

ملخص البحث

شكل التراث العربي الإسلامي الهوية الثقافية للأمة، وشخصيتها المتميزة، وهذا التراث هو عصارة العقل العربي الإسلامي خلال عصور الأنوار الممتدة على مسافة ثمانية قرون أو يزيد، وكانت اللغة العربية الآلة الضرورية أو الأركان الذي فُكر به العقل العربي وعبر به عن كل إبداعاته المختلفة والمتنوعة في علومه العقلية والنقلية، وأصبحت هذه اللغة بعد الترجمة والتعريب حاوية كل علوم ومعارف الحضارات السابقة رغم اختلاف مصادرها.

إن اللغة العربية لغة الدين الإسلامي رافقت انتشاره خلال الفتوحات، وهي لغة القرآن ولغة العلوم العقلية والنقلية ولغة العلم والإبداع في العصور الوسطى، وصنفت علوم اللسان في المرتبة الأولى في سلم العلوم العربية بحسب تصنيف فلاسفة العرب والمسلمين، وكان مشروع جمع اللغة العربية وتقعيدها أعظم إنجازات العقل العربي في عصر التدوين، وقد تركت آثارها في الكثير من اللغات العالمية، وهي بخلاف الكثير من اللغات لازالت لغة حية وستبقى كذلك ما بقي هذا الدين.

الكلمات المفتاحية: اللغة، العقل، العربي، الأركان، التراث، العربي، تصنيف، العلوم.

Abstract:

Summary The Arab-Islamic heritage has formed the cultural identity of the nation, and its distinct personality, and this heritage is the sap of the Arab Islamic mind during the illumination during eight centuries or more.

Mentalism and mobility, and after translation and Arabization, this

* المؤلف المرسل: د. قديدير بوجمعة kedidir.anas@gmail.com

language became the container for all the sciences and knowledge of previous civilizations, despite their different sources.

The Arabic language is the language of the Islamic religion, accompanied its spread during the conquests, and it is the language of the Qur'an, the language of mental and translational sciences, the language of science and creativity in the Middle Ages, and the linguistics was ranked first within the Arab sciences according to the classification of Arab and Muslim philosophers, and the project to collect and establish the Arabic language was an outstanding attainment of the Arabic mind throughout the epoch of codification, and it has left its belongings in many international languages, and unlike many languages it is still a living language and will remain so as long as this religion remains.

Keywords: Language; Arab mind; Arganon; Arab heritage.

مقدمة:

يشكل التراث الهوية الثقافية للأمم، من دونه تتفكك الأمة وتضمحل، وتذوب ثقافياً في تيارات عالمية، فالبقاء للأصلح، والتراث العربي يمثل الوجه المشرق للحضارة الإسلامية. لأنّ تاريخ الفكر العربي سجل مفاخر زاخرة، وأمة العرب والإسلام لم تكف أبداً عن اطلاع العباقة... وتشعر أنّك وارث أجمل حضارات البشر جميعاً¹، هذه الحضارة التي لم تبني على أساس عرقي أو عنصري، بل صنعتها أجناس متعدّدة، جمعها اللسان العربيّ، صنعها العرب والفرس والهنود والأتراك والأسبان، وقد أسهمت كلّ من هذه الفئات بنصيب وافر في بناء الحضارة الإسلامية والتراث العربي²، فالدين واللغة وحداً هذه الأمم مهما تدانت أو تباعدت.

حوى تراثنا فنونا معرفية مختلفة، ويستحيل تحديد النشاط الفكري المعبر عن روح الحضارة، فالبعض يعتبرها "حضارة فقه" لأنّ التراث المنطقي الأصولي: النموذج الأعلى للفكر الإسلامي... وقد انتقل هذا النموذج الفكري إلى دوائر العلماء، فأخذوا به وطبقوه. فوصل العلم الإسلامي إلى أوجه، وبنى

¹ - مؤنس حسن، تاريخ موجز الفكر العربي، دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1996، ص130

² - مرجحاً محمد عبد الرحمن، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط2، 1988، ص17

الحضارة الإسلامية"¹، وهو مفخرة من مفاخر المسلمين، لأنّ الفقه عمود الحضارة الإسلامية و"قاعدة تنظيم المجتمع الإسلامي، والفقهاء هم العمدة الحقيقية لعمران العالم الإسلامي وأساس ما بقي سليما من أعمدته"². أما عبد الرحمن مرحبا فاعتبر التفكير العلمي اصدق تعبير عن حضارتنا، يقول: "والحق أن التراث العلمي-لا الأدبي- هو الذي يمثل وجه العبقريّة العربيّة الصحيح، وهو الذي جعل العرب سدنة العلم والفكر والحضارة، في عصور الظلام الأوروبي"³، فالحضارة الإسلامية- بخلاف حضارة اليونان القائمة على فلسفة-حضارة علم ومنهج لأنّ "العلم يمثل أساسا للحضارة العربيّة الإسلامية، وأنّ هذه الحضارة ثورة علمية"⁴، أمّا الجابري فقد ميّز بين الحضارتين اليونانية والعربية بقوله: "إذا كانت الفلسفة هي "معجزة" اليونان فإنّ علوم العربية هي "معجزة" العرب. والحق أن ذلك العمل العظيم الذي تم في عصر التدوين على مستوى جمع اللّغة وتقعيدها كان أشبه شيء بالمعجزة"⁵. وقد استوقفتنا هذه النّقطة الأخيرة وهي أن: علوم العربية معجزة العرب". فكيف ذلك؟ بداية، ليس الغرض من هذا المقال تمجيد اللّغة العربية واعتبارها أشرف اللغات، فقد رفض ذلك ابن حزم وأكد أنّه يوجد من يتوهم أنّ لغتهم أفضل اللغات وهذا غير صحيح برأيه، فلا يوجد لغة أفضل من غيرها وإنّما قوة اللغة من قوة أهلها، يقول ابن حزم: "إنّما يقيّد لغة الأمّة وعلومها وأخبارها

¹ - النشار علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، دار المعارف، القاهرة، ط9، دت ص78

² - مؤنس حسن، المرجع نفسه، ص99

³ -مرحبا محمد عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص15 كان العلم "منذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامية جزءا من الحضارة العربية الإسلامية، فليس عجبا أن يكون طلب العلم فريضة -بكل مجالاته النافعة الخيرة -عبادة وفريضة في الإسلام" شوقي أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر -دمشق، 1996، ص 441

⁴ -غريبن جون، تاريخ العلم، ترجمة جلال شوقي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الجزء الأول، دت، 2012،

ص10

⁵ - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط10، 2009، ص80

قوة دولتها ونشاط أهلها"¹¹، فاللغة تقوى وتضعف بحسب تحضر أهلها، فقد كانت العربية لغة عالمية عندما كان أهلها يبدعون وطوعها حتى تكون لغة العلوم الكونية والطبيعية فأنشجوا حضارة عالمية، و "انظر مثلاً أسلوب الدواوين في عصر الانحطاط العربي، وقارن بينه وبين مثيله في صدر الدولة الأموية وفي العصر العباسي يتضح لك الفرق، لقد انحط أسلوب الكتابة بالخطاط الأئمة، وعجز أبنائها عن التعبير السليم الصحيح وانتكست البحوث العلمية والفلسفية والأدبية فتضاءلت القدرة

على التعبير مع أن اللغة هي اللغة لم تتغير في متون المعاجم وأمهاات الكتب"². بل غرضنا بيان خصوصياتها ودورها في بناء العقل والذات العربية الإسلامية، وكانت عناصر البحث الرئيسة هي:

01. جمع اللغة العربية وتقعيدها أول وأعظم إنجازات العقل العربي أول مشروع علمي منظم قام به العقل العربي هو جمع اللغة العربية ووضع قواعد لها، وانتقلت اللغة العربية من المستوى اللاعلم إلى مستوى العلم.

02. اللغة العربية حاوية لعلوم الأوائل وحافضة للتراث الإنساني من خلال الترجمة والنقل صبت ثقافات العالم المتحضر في اللغة العربية وأصبحت كأنها نهر عظيم تتدافع إليه جداول شتى من الفكر والعلم وحافظت على التراث الإنساني وأنقذته من الضياع.

03. اللغة العربية آلة (أرغانون) العقل العربي الضرورية كانت اللغة العربية العنصر الأساس في بناء الذات الحضارية العربية، وفي تكوين العقل العربي وفي نظرتة للكون والآلة الضرورية لكل إبداعات العقل العربي الإسلامي العقلية والنقلية

¹ - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ج 1، ص 31

² - الخطابي محمد العربي، اللغة العربية والتطور، مجلة اللسان العربي، العدد الأول، الرباط، يونيو 1964، ص 29

04. اللغة العربية وعلومها الأولى في تصنيف العلوم العربية والإسلامية تصنيف العلوم يكشف عن الحياة العقلية عند الأمم فالمعلم الأول ومثل الثقافة اليونانية أرسطوطاليس، جعل المنطق الآلة الأولى (Organon) والضرورة لجميع العلوم، أما فلاسفة العرب فصنفوا علم اللغة في المرتبة الأولى في سلّم علومهم.

05. اللغة العربية لغة العلم والحضارة والحفاظة للتراث الإسلامي أصبحت الآلة الضرورية للنّهضة العلمية العربية، وقدمت منذ البداية الأداة الكافية للتعبير العلمي الدقيق عن كل الإبداعات الإسلامية الأصيلة، فهي لغة للكتابة والتفكير على درجة عالية من الرقي من حيث آلياتها المرنة.

01. جمع اللغة العربية وتقعيدها أول وأعظم إنجازات العقل العربي: جمع اللغة العربية ووضع قواعد لها أول مشروع علمي أصيل، وإحدى الإسهامات الكبرى التي عبّرت عن أصالة العقل العربي وقوته، يقول الجابري: "وثمة اعتبار آخر يمكن أن يبرر إعطاء الأولوية للغة العربية في دراسة العقل العربي: مكوناته وآلياته. إنّه المعطى التكويني نفسه، ذلك أن الواقع التاريخي يؤكد بما لا مجال للطعن فيه أنّ أول عمل علمي منظم مارسه العقل العربي هو جمع اللغة العربية ووضع قواعد لها. وفي حالة كهذه يكون من "الطبيعي" تماما أن يتخذ العمل العلمي الأول، الذي أنتج علم اللغة وعلم النحو، نموذجا للأعمال العلمية الأخرى التي قامت من بعده"¹.

قامت حركة علمية دقيقة لصياغة قوانين اللغة العربيّة صياغة علميّة لحفظها من الخطأ واللحن وكيفية استخدام مفرداتها وتراكيبها، وحرص اللّغويون على "جمع النّصوص وتوثيقها، ثم فحصها واستقراءها وصولا إلى القواعد المطّردة التي تثبت بالاستقراء، ففي العروض مثلا كانت نصوص الشّعر الفصيح بين يدي "الخليل بن احمد" بعد أن أجازها علماء الطّبقة الأولى من الخبراء بالشّعر وعكف الخليل على فحصها حتى هدته الملاحظة الثّاقبة الدّقيقة إلى ما لاحظته من سنن الفصحاء في الشّعر، ظلّ

¹ - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م، س)، ص 76

يتتبعها بالدرس حتى استطاع أن يستخلص قوانين العروض مما هدى إليه الاستقراء الدقيق لكل ما وصل إليه الخليل من شعر الفصحاء"¹. وهذا يدل على أنّ العقل العربي عقل مبدع خصب أصيل وليس مجرد عقل حالم تابع لغيره، ف"اللغة والعلم فيض من نتاج العقل الإنساني وتدييره"². وجمعت اللغة العربية وظهرت علومها استجابة لتحديات وضرورات مختلفة، ولعلّ "أكبر ما جعل التعمق في دراسة اللغة العربية أمراً ضرورياً هو اشتغال المسلمين بدراسة القرآن وقراءته وتفسيره... وجمعت الشواهد من أشعار العرب القديمة، ومن الكلام الحي الجاري على ألسنة الأعراب تأييداً للغة القرآن"³.

ولما بدأت النهضة العلمية العربية وجدت في اللغة إحدى أدواتها الأساسية يقول المؤرخ الكبير ول ديورانت: "وقد قوى علماء الإسلام في ذلك العهد دعائم الأدب العربي الممتاز بدراستهم الواسعة للنحو الذي جعل اللغة العربية لغة المنطق والقياس، وبما وضعوه من المعاجم التي جمعوا فيها ثروة هذه اللغة من المفردات في دقة ونظام، وبموسوعاتهم ومختصراتهم، وكتبهم الجامعة، التي جمعت كثيراً من أشتات الأدب والعلوم لولاها لخسرها العالم... وحسبنا أن نعترف بفضلهم ونمجّد أعمالهم"⁴.

بدأ عصر التدوين في القرن الثاني الهجري، أين تكوّن العقل العربي ووضع علومه الأولى، ولعلّ أبرزها علوم النحو واللغة، وتمّ بسرعة الانتقال بلغة قائمة على "الفطرة والطبع" لغة لا يمكن تعلمها ولا فهمها إلا بالعيش وسط القبائل التي تتكلمها، إلى لغة قابلة لأن تكتسب وتتعلم بنفس الطريقة

¹ - البندر عبد الزهرة، منهج الاستقراء في الفكر الإسلامي، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1992 ص82 وقد لجأ علماء اللغة في هذه المرحلة إلى طريقة الملاحظة المباشرة التي هي أول خطوة من خطوات المنهج الاستقرائي، وعلى ضوءها استطاعوا أن يقسّموا الظواهر اللغوية إلى أقسام متميزة ويرجعونها إلى طوائف محددة ويردوا الفروع إلى أصولها "الرجاهي، عبد اللطيف أحمد، المنهج الاستقرائي، دارا لسلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2012 ص ص 144، 145

² - الخطابي محمد العربي، اللغة العربية والتطور، (م)، (س)، ص28

³ - دي بور ت ج، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريدة، مكتبة النهضة المصرية، ط5، دت، ص56

⁴ - ديورانت ول وايريل، قصة الحضارة، ج2، المجلد 4، ترجمة، محمد بدران، دار الخليل للنشر والطبع والتوزيع، بيروت، دط، دت،

التي يكتسب بها العلم... لقد كان تدوين اللغة أكثر بكثير من مجرد "تدوين" بمعنى تسجيل وتقعيد: إنه الانتقال باللغة العربية من المستوى اللاعلم إلى مستوى العلم. إنّ جمع مفردات اللغة وإحصاءها وضبط طريقة اشتقاقها وتصريفها ووضع قواعد لتركيبها واختراع علامات لرفع اللبس عن كتابتها. كل ذلك لا يمكن أن يوصف بأقل من إنشاء علم جديد هو علم اللغة العربية"¹. وهذا العمل العلمي العظيم تصدت له عقولا جبارة كالخليل بن أحمد الفراهيدي (100-170هـ) بعدما اهتدى إلى المنهج العلمي الدقيق، و"المنهجية التي اتبعها اللغويون والنحاة الأوائل، وكذلك المفاهيم التي استعملوها، والآيات الذهنية التي اعتمدوا عليها... من المنتظر أن يكون ذلك كله "أصلا" يعتمده مؤسسو العلوم الإسلامية، أو على الأقل يشقون منه طريقة عملهم إن لم ينسجوها على منواله"²، فالشافعي واضح الأصول استعار قاعدة "قياس الغائب على الشاهد" من اللغويين.

إنّ ما قام به علماء اللغة والنحاة وفي وقت وجيز ومنهج دقيق لا يمكننا إلا أن نصفه بالمعجزة، لقد كان الفراهيدي "إماما في النحو مخترعا لعلم العروض ومبتكرا للمعجم العربي الذي اتبع فيه منهجا عقليا معقدا، يدل على رقي فكره وتوقد ذهنه ورسوخ قدمه في علم الأصوات اللغوية"³. ومهما كانت الأسباب التي دفعت جمع اللغة العربية وتقعيدها (كإنقاذ لغة القرآن من اللحن والانحراف...) فإنّ النتيجة كانت ظهور أعمال علمية أصيلة وهي "تحويل اللغة العربية من لغة غير علمية (أي غير قابلة للتعلم بطرق علمية) إلى لغة علمية لغة تخضع لنفس النظام الذي يخضع أي موضوع علمي آخر. ولا يمكن للمرء إلا أن يزداد إعجابا وتقديرا لهذا العمل العظيم حين يأخذ بعين الاعتبار المدة الوجيزة التي تم فيها انجازه والمجهودات الجبارة التي بذلها طوابعه وبدون أجر رجال ندبوا أنفسهم وصرفوا من أموالهم ولسنين طويلة لإنجاز هذه المهمة الشاقة... لقد أمدوا الأجيال اللاحقة بلغة

¹ - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م، س)، ص 76

² - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 76

³ الشتواني أحمد محمد، موسوعة عباقرة الحضارة العلمية في الإسلام، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، ط 1، 2007، ص 223 وكتاب "العين" أول معجم عربي.

مضبوطة قابلة للتلقي والتعليم وبالتالي قادرة على حمل الثقافة والعلم من السلف إلى الخلف"¹، وبذلك وضعوا الآلة الضرورية للعقل العربي، ف"لسان العرب" لابن منظور مثلاً أكبر وأغنى قاموس في اللغة العربية ومرجعاً لكل لسان عربي بعده، حتى إنّ القواميس العربية الحديثة والمعاصرة يمكن اعتبارها "بمجرد مختصرات -مشوهة أحياناً- للمعاجم القديمة. إنها لكي تكون "عربية" يجب أن تضم لغة "العرب" وحدهم، لغة أولئك الذين اعترف لهم وحدهم عصر التدوين بصفاء الهوية العربية وأصالتها"²، أي لغة الأعرابي البدوي الذي عاش في البادية على الفطرة والطبيعة، لغة لها خصوصياتها وجمالها ورقتها وعذوبتها فقد "كانت اللغة العربية ذات خاصية موسيقية"³، فكلام العرب أوزان لمن يتذوقها.

بذل اللغويون والنحاة جهوداً كبيرة في جمع اللغة العربية واستوعبوا أساليب التعبير عند العرب، حتى تم لهم نظمها في قواعد عامة، يقول ديور: "احتفظ علم النحو العربي بخصائص له... وهو على أي حال أثر رائع من آثار العقل العربي بما له من دقة في الملاحظة، ومن نشاط في جمع ما تفرق، وبحق للعرب أن يفتخروا به"⁴، لأنه علم أصيل موضوعاً ومنهجاً، لقد بُني على منهج علمي سديد تجلّى باعتمادهم مبدأ القياس. و"كان ظهور النحو في العالم الإسلامي ظاهرة من أهم الظواهر، وكان لا بد أن تبحث من وجهة نظر فكرية فلسفية. لقد كانت اللغة من حيث هي لغة المعبر الأكبر عن الدولة الإسلامية الجديدة... بمعنى أدق أكد الإسلام دولية هذه اللغة وكان في هذه اللغة تراث المسلمين جميعاً، وتكون النحو شيئاً فشيئاً مستنداً على دوافع لغوية... وفي أعماق اللغة وفي جوانب

¹ - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م، س)، ص 81

² - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 79

³ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 89

⁴ - دي بور ت ج، تاريخ الفلسفة في الإسلام، (م، س)، ص 59

النحو فلسفة إسلامية: فكرة الزمان، الماضي والحاضر والمستقبل، فكرة العلية، فكرة القياس العقلي النحوي. وفي إيجاز كل مقولات العقل الإسلامي إنما ينبغي أن تستمد في أعماق النحو واللغة¹. إن مشروع جمع اللغة العربية وتقييدها ما كان له أن يرى النور لو لم يقف خلفه عقول ذكية جبارة ومنهج علمي دقيق ينسجم مع طبيعة الموضوع لأن "المنهج الذي اتبع في تحويلها إلى لغة مقننة كان من الدقة والصرامة بحيث فرض عليها نظاما صارما لا بد أن يكون له تأثير في كيانها الداخلي ذاته...إننا لا نملك مع ذلك إلا أن نقف مندهشين أمام دقته وسلامة خطواته وصرامة منطقته الداخلي²". وكان أول من تصدر لهذا العمل هو الفراهيدي بعدما تسلم بمنهج علم دقيقا، و"ما يشد الباحث الاستيمولوجي المعاصر إلى طريقة الخليل في جمع اللغة وهيكله معجمه (كتاب العين) هو المبدأ المنهجي الذي اعتمده في فرض النظام على شتات اللغة. إنه مبدأ لا يمكن أن يعتمده - ولو منقولاً - إلا عقل رياضي فدّ، عقل لا يتناقض قط مع الحاسة الموسيقية المرفهة التي مكّنت الخليل نفسه من استنباط أوزان الشعر العربي (من تحليل القصائد وتقطيع الأبيات) وبالتالي من تأسيس علم جديد هو علم العروض. وكيف يتناقض الحدس الرياضي مع الحاسة الموسيقية وقد كانت الموسيقى يومئذ فرعاً من الرياضيات؟"³.

تمّ الانتقال باللغة العربية من لغة لا يمكن تعلمها إلا مشافهة وسط القبائل التي تتكلم بها، إلى لغة قابلة لأن تُكتسب وتتعلم كأى علم آخر، وهذا نموذج رائع لأصالة العقل العربي واستقلالته في التفكير بمنهج وآليات وأدوات خاصة، فلم يكن الخليل مجرد تابعا للمنهج الأرسطي وقياساته، بل عبّرت أعماله عن عقلية علمية مستقلة وجد متطورة، فقد "اتجه الخليل بن أحمد بحاسته الموسيقية المرفهة إلى الشعر العربي فاستخلص منه القوالب الخفية - اللامرئية - التي يصب فيها، واتجه بعقله

¹ - النشار علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1، دار المعارف، القاهرة، ط9، دت. ص 55-56

² - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م، س)، ص 81

³ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 81

الرياضي إلى وضع قلب نظرية افتراضية، لا تعدم أصولا في الواقع، فوزع عليها النطق العربي منطلقا في البداية من "الإمكان الذهني" غير آبه بـ "الإمكان الواقعي" إلا في مرحلة التجربة والتحقق، المرحلة التي يتم فيها الانتقال من العلم الرياضي الصوري، إلى العالم الواقعي المشخص"¹، والجمع بين الذهني والواقعي خاصة من خواص العقل العلمي العربي.

بهذا المنهج العلمي والعقل الرياضي انطلق الخليل من الإمكان الذهني فتعامل مع الحروف الهجائية العربية الثمانية والعشرين تعاملًا رياضيًا صرفًا، وركب بعضها مع بعض لإنشاء الكلمات الممكنة و"هذا هو المبدأ الذي بنى عليه الخليل مبدأ الشهير، والذي كان أول معجم في العربية، بل ربما أول معجم من نوعه في تاريخ اللغات"². وبما أنّ الكلمة العربية الممكنة إمّا أن تكون ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية أخذ الفراهيدي "يركب الحروف العربية الهجائية بعضها مع بعض مثنى وثلاث ورباع وخماس مستنفذا في ذلك كل التراكيب الممكنة (مثلا بد، دب، أبد، أدب، بدأ، باد، داب، دبا...) مسقطا المكرر منها، إلى أن تم له استخراج جميع الألفاظ التي يمكن أن تتركب منها الحروف الهجائية العربية (من حرفين إلى خمسة أحرف) فبلغت حسب ما نقله بعض المؤرخين: 12305412 لفظا... ثم أخذ يفحص هذه الألفاظ - المجموعات فما وجده مستعملا مثل "ضرب" أبقاه وسجله وما وجده غير مستعمل مثل "جشص" - التي لا يوجد لها في لسان العرب - أهمله، وإذا كان الخليل لم يتمكن من إتمام مشروعه الضخم، فإنّ عمل اللغويين الذين جاؤوا بعده مباشرة كان محصورا، أو يكاد، في إتمام هذا المشروع"³. الذي كشف عن عقلية فذة و منهجية راقية حددت البنية النهائية للغة العربية، و"كانت القوالب الصورية التي صب فيها الخليل وزملاؤه اللغة العربية قد منحتها نوعا من الديناميكية الداخلية (الاشتقاق) وبالتالي جعلتها أكثر مطاوعة، فإنّها قد عملت أيضا على

¹ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 81

² - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م، س)، ص 81

³ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 82

"تحسينها" من كل تغيير وتطور يقترحهما عليها التاريخ، ولذلك بقيت اللغة العربية وما زالت منذ زمن الخليل على الأقل لم تتغير لا في نحوها ولا في صرفها ولا في معاني ألفاظها وكلماتها ولا في طريقة توالدها الذاتي"¹.

و عن طريق الاشتقاق الصناعي تضخمت الكلمات، وازدادت اللغة العربية الغنية غنى و"أصبحت لغة المعجم، لغة الأصل والمشتق"، أوسع بكثير من لغة الواقع... ومن جهة أخرى كان لا بد أن يؤدي أخذ اللغة من قبائل مختلفة- وليس من قبيلة واحدة كقبيلة قريش مثلاً- إلى ظاهرة كثرة المترادفات"² مما جعل لغة الضاد ذات فائض في المبنى والمعنى تستطيع التعبير بشكل دقيق عن كل خطاب مهما كان لونه، فهي "أكثر اللغات قبولاً للاشتقاق، والاشتقاق باب واسع تستطيع به اللغة أن تؤدي معاني الحضارة الحديثة على اختلافها، والاشتقاق في العربية يقوم بدور لا يستهان به في تنويع المعنى الأصلي وتلوينه"³

إنّ اللغة العربية أطول اللغات عمراً، ولها من الخصائص والمميزات ما لا تدانيها فيها لغة من اللغات و"كانت هذه اللغة بما حوت من كثرة المفردات ووفرة في صور التعبير، وبما في طبيعتها من قبول للاشتقاق خليقة أن تتبوأ مكانها بين لغات العالم، ولو قارناها باللغة اللاتينية، في ثقلها وقلة مرونتها، أو باللغة الفارسية في فرط إسهابها لوجدناها تمتاز عليهما بما فيها من صور لفظية قصيرة تدل على المعاني المجردة، وهذه خاصة عظيمة النفع في ممارسة العلوم، فنحن نستطيع أن نعبر بهذه اللغة العربية عن أدق الفروق بين المعاني... وأي لغة فيها من جمال البيان وقوة الدلالة ومن الصعوبة

¹ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 86

² - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 88

³ - السايح عبد الرحيم، العربية فلسفة وحياة، (م، س)، ص 43

أيضا، ما في اللغة العربية كان من المحتم أن تُهيئ الدواعي إلى أبحاث كثيرة، عندما سارت لغة العلم عند السريان والفرس¹.

02. اللغة العربية حاوية لعلوم الأوائل وحافضة للتراث الإنساني: لما أعد العقل العربي آتته للتفكير والتفكير والتعبير، كان عليه أن يتصل بالعالم المتحضر لأنّ ميلاد الحضارة يقتضي أن يقتدي العقل بنموذج أعلى منه في التعقل والتنظير، والإبداع يسبقه إتباع ولا بد من طلب الحكمة ولو بالصين ولقد "كان السلف أكثر تحررا منا، ويكفي دلالة على تحرهم أن تكون قاعدة الإبداع مع الإلتباع هي الطريقة الحياتية"² وساعدهم على ذلك الموقع الجغرافي للحضارة الإسلامية "تتوسط حضارات الهند والصين والفرس شرقاً وحضارات روما واليونان غرباً"³، لهذا صبت ثقافات العالم المتحضر من خلال الترجمة في اللغة العربية وأصبحت كأنها نهر عظيم تتدافع إليه جداول شتى من الفكر والعلم.

بدأت الحركة العلمية العربية بالترجمة، وهي فعل تواصلية حضاري ضروري مع الآخر لأنّ الاتصال بين الحضارات ضرورة علمية و"استقى أسلافنا العلم من الهند والصين واليونان وأضافوا إلى إرث اليمن ومصر وإنطاكية وبلاد بابل، وترجموا وهضموا وطوروا واخترعوا بحيث أضحي علمهم علم العالم على امتداد سبعة قرون ولغتهم لغة العالم"⁴. والعجيب أنّ العربية التي كانت لغة بدو متخلفة عن الركب الحضاري آنذاك استطاعت أن تستوعب بقدرة فائقة لغات العالم المتحضر وبقيت "اللغة العلمية في الحضارة الإسلامية من القرن الثامن والتاسع حتّى عصرنا الحالي... إنّ اللغة العربية كانت

¹ - دي بورت ج، تاريخ الفلسفة في الإسلام، (م)، (س)، ص 55، 56

² - بوعرفة عبد القادر، العرب أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل، ابن النديم للنشر والتوزيع الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت لبنان، ط 1، 2016، ص 72

³ - باشا أحمد فؤاد، التراث العلمي للحضارة الإسلامية، (م)، (س)، ص 27

⁴ - راشد رشدي، موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 1997، ص 22

اللغة التي دُوِّنت معظم المؤلفات كما برهنت الأغلبية الساحقة من النصوص المتوفرة حتى الآن¹. كانت الترجمة ضرورة حضارية فرضتها النهضة العلمية الناشئة، ولم تكن مجرد لذة عقلية عابرة، فالترجمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبحث العلمي والإبداع. فلم يكن القصد من الترجمة إنشاء مكتبة علمية الهدف منها إثراء خزائن الخلفاء والأمراء بل لتلبية حاجات البحث، وإذا لم نع هذه الظاهرة حق الوعي فلن ندرك شيئاً من حركة الترجمة هذه، التي كانت أكبر حركة ترجمة عرفها التاريخ. ويكفي أن نذكر أنّ المترجمين أنفسهم كانوا من قادة الحركة العلمية². لقد كان العلم مشروعاً حضارياً واجتماعياً وسياسياً ودينيّاً وثقافياً، وكان مشروع الأمة الأول، ففي عهد المأمون، عصر الازدهار العلمي "أصبحت بغداد أعظم منارة للعلم في العالم في العصر الوسيط، وكان التعريب من كلّ اللغات، وقُدِّم لكلّ مترجم قُبالة كلّ كتاب عربيّ زنته ذهباً"³. لقد تحمّل العلماء والحكام مسؤوليتهم العلمية كاملة اتجاه العلم، وكانوا على وعي تام بما يقدمونه للإنسانية و"كان بنو أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية، أو الصابئية، أو الفارسية قائمة في الإسكندرية، وبيروت، وأنطاكية وحرّان، ونصيبين وجنديسابور لم يمسّوها بأذى، وقد احتفظت هذه المدارس بأمّهاات الكتب في الفلسفة والعلوم...وما لبثت أن ظهرت ترجمتها إلى اللغة العربية على أيدي النساطرة المسيحيين واليهود وشجّع الأمراء من بني أمية وبني العباس هذه الاستدانة المثمرة"⁴.

أحدثت الترجمة لأعمال الفلاسفة اليونانيين ولعلوم الأمم السابقة طفرة فكرية وفلسفية للحضارة الإسلامية و للإنسانية جمعاء، وكان فضل المسلمين على التراث الإغريقي كبيراً بخلاف أحفادهم الرومان الذين "لم يكونوا أهلاً للاستفادة من ذلك العلم (العلم اليوناني) فدفنوا كنوز اليونان الأدبية

¹ - صليبا جورج، العلوم العربية وقيام النهضة الأوروبية، ترجمة محمد حداد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط1، 2011، صص 08، 09

² - رشدي راشد، موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج1، (م. س)، صص 08، 09

³ - أبو خليل شوقي، الحضارة العربية الإسلامية، (م. س)، صص 444

⁴ - ديورانت، ول وإيريل، قصة الحضارة، ج2، (م. س)، صص 177

والعلمية في خزائنتهم حتى جاء المسلمون فكشفوا عن هذه الذخائر واستفادوا من محتوياتها¹، أعرض الرّوم عن الكتب الإغريقية وألقوا بها واحرقوا بعضها بحجة الإلحاد، وكادت تندثر لولا جهود العرب والمسلمين الذين "استنقذوها وأخرجوها من جحورها ورّموها وحققوا نصوصها وعلّقوا عليها وبذلك أسدوا للتاريخ وللإنسانية خدمة لا تقدر بضمن²".

أصبحت اللغة العربية حاوية لعلوم الأوائل، وفتحت صدرها لتراث الإنسانية العظيم. وهذا العمل العلمي يُحسب للعرب و"لو لم ينقل إلى العربية في العصر الإسلامي لكان قد اندثر تماما ولتأخر تقدم البشرية عدة قرون"³ وبهذا حافظوا على التراث الإنساني السابق وأنقذوه من الضياع، ف"الفضل أعظم الفضل للعلماء العرب في الحفظ على هذا التراث وتدوينه ونقله والتأليف فيه، وإنّ العلماء العرب قد بلغوا شأواً، وإتّهم تفوّقوا على الإغريق أن جعلوا العلم سهلاً مستساغاً فأقبل الناس على النّهل منه، وكانت ميزة تفرد بها العلم العربي"⁴.

احتاج العرب إلى علوم الأوائل فنقلوها إلى ثقافتهم، لكنّ لغتهم لم تحتج إلى لغة الأوائل لأنها غنية ولها قدرة هائلة على احتواء اللغات الأجنبية، قال البيروني: "وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أفكار العالم، فازدانت وحلّت إلى الأفئدة وسرت محاسن العربية منها في الشرايين والأوردة وإن كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مع أشكالها، وأقيس هذا بنفسه وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علي لاستغرب مثل البعير الميزاب والزرافة في العراب (يريد اللغة الفارسية) و العراب هي الخيل، فأنا في كل واحدة دخيل ولها متكلف أي أن الفارسية والعربية لم

¹ - عبد القادر ماهر محمد، مناهج العلوم عند المسلمين قديماً وحديثاً، (م. س)، ص 197 وكثير من "النصارى اللاتين قد عرفوا مفكري اليونان، أول ما عرفوهم، عن طريق العرب. وكم من أثر يوناني قيّم قد فقد نصّه الأصلي وحفظته لنا الترجمات العربية أو الترجمات اللاتينية أو العبرية المنقولة عن العربية"¹. الفاخوري حنا وخليل الجر تاريخ الفلسفة العربية (م، س)، ص 37

² - مرجعاً محمد عبد الرحمن، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، (م، س)، ص 26

³ - باشا أحمد فؤاد، التراث العلمي للحضارة الإسلامية، (م، س)، ص 33

⁴ - منتصر عبد الحليم، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 2012، ص-90

تكنّا لغته، فإنّ لسانه تركي والمجّو بالعربية أحبّ إليّ من المدح بالفارسية"¹. فالعربية حملت الثقافة الإسلامية العالمية، وحافظت على التراث العربي الهائل الذي يشكل الهوية الثقافية للأمة فـ"كل أمة تختزن في لغتها تجاربها... والذي يساهم في تحديد نظرة أصحابه للكون، إلى الحق والخير والجمال"².

03. اللغة العربية آلة (أرغانون) العقل العربي الضرورية: إنّ الإنسان والعقل مرادفان، فالعقل هو الوجود الحقيقي للإنسان وخاصيته الذاتية التي تفرد بها، والسعادة هي العيش في كنفه، والاستنارة بنوره، وأكثر ما يجسّد عقليّته ومدنيّته منطق اللغويّ و"لما كان العقل مرتبطاً ذاتياً بالنطق والكلام، فإنّ تعريف الإنسان بأنه "حيوان ناطق" أو بأنّه "حيوان عاقل"، يغدوان الشيء نفسه. وكانت اللغة اليونانية... جعلت كلمة اللوغوس تدلّ في الوقت نفسه على الكلام والعقل"³. فاللغة وسيلة للتواصل مع الغير، وترجمان الفكر، وأداة التعبير عن "تفكير الأمة ووسائلها الثقافية المحدودة. وكلما ازداد تفكير المجتمع اتساعاً وثقافته نمواً تطورت لغته وازدادت قدرتها على التعبير"⁴، فهي المعيار الدقيق للرقي الثقافي والحضاري للأمة، ولا أحد ينكر "دور اللغة في تشكيل تصور الإنسان للعالم، وبالتالي في بناء عقله وهيكله فكره"⁵، وخير دليل على ذلك اللغة العربية التي كانت العنصر الأساس في بناء الذات الحضارية العربية، وفي تكوين العقل العربي وفي نظرته للكون، لأنّها "ذات فائض من الألفاظ بالنسبة للمعنى، الشيء الذي سينعكس أثره، ولا بد، على طريقة تعامل العقل العربي مع اللغة، لغته التي تساهم مساهمة أساسية في صنعه"⁶، وعليه، فاللغة العربية صنعت العقل العربي وهو الذي صنعها، فبينهما علاقة جدلية، و"كل مقومات العقل الإسلامي إنّما ينبغي أن تستمد في

¹ - مؤنس حسن، تاريخ موجز الفكر العربي، (م. س)، ص 129

² - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م. س)، ص 77

³ - المصباحي محمد، الذات في الفكر العربي الإسلامي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط 1، 2017، ص 306

⁴ - الخطابي محمد العربي، اللغة العربية والتطور، (م. س)، ص 28

⁵ - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م. س)، ص 83

⁶ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 83

أعماق النّحو واللّغة"¹، لهذا فإنّ مفكري الحضارة الإسلامية على اختلاف أصولهم وأعراقهم كانوا عرباً في الفكر واللّغة والثقافة، فاللّغة ليست أداة وحسب و محتوى وحسب، بل هي بمعنى ما من المعاني القلب الذي تفصل المعرفة على أساسه، تماماً كما يفصل الخيّاط الثوب على أساس القلب"²

اللّغة خاصية إنسانية، فالكلام جزء من ماهية الإنسان "الحيوان الناطق"، وهذا ما ينطبق على العربي الذي "يجب لغته إلى درجة التقديس، وهو يعتبر السلطة التي لها عليه تعبيرا ليس فقط عن قوّتها بل عن قوته هو أيضاً، ذلك لأنّ العربي هو الوحيد الذي يستطيع الاستجابة لهذه اللغة والارتفاع إلى مستوى التعبير البياني الرفيع الذي تتميز به...ومن هنا يمكن القول أنّه كلما كان العربي أقدر على التعامل مع اللّغة العربية تعبيرا واستجابة كان أكثر امتلاكاً لما به الإنسان هو إنسان: فالعربي "حيوان فصيح" فبالفصاحة وليس بمجرد "العقل" تتحدّد ماهيته"³. وفصاحة لغته من راحة عقله.

إنّ العقل كأداة وكمحتوى في بنيته ومؤهلاته وآلياته سواء أردنا به-حسب لالاند Lalande- العقل المكوّن La raison constituante (الملكة التي ندرك بها العلاقات بين الأشياء و نستخرج بها المبادئ الكلية والضرورية...أو العقل المكوّن La raison constituée وهو "مجموع المبادئ والقواعد التي نعتمدها في استدلالنا"⁴. فإنّ العقل العربي في العصور الوسطى، وهي عصور الأنوار الحقيقية في العالم الإسلامي كان عقلاً نشطاً حراً متسائلاً مصححاً مبدعاً لمعارف وعلوم أصيلة (عقلاً مكوّناً)، ونشأ-بطبيعة الحال- في مناخ حضاري وثقافي خاص أي نشأ في الثقافة العربيّة الإسلاميّة (عقلاً مكوّناً)، لأنّ "التفكير داخل ثقافة معينة لا يعني التفكير في

¹ - النشار علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، (م)، (س)، ص 56

² - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م)، (س)، ، ص 77

³ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه ، ص 75

⁴ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 15

قضاياها، بل التفكير بواسطتها... فالفكر يحمل معه شاء أم كره آثار مكوناته وبصمات الواقع الحضاري الذي تشكل فيه ومن خلاله"¹، وأولى تلك العناصر الثقافية التي يستخدمها الفكر وأقواها هي اللغة طبعاً فالإنسان يفكر باللغة ويتكلم بالفكر، و"الإبداع كفعل تعبري دلالي رسالي تواصل يفرز أن تكون اللغة المعبرة عنه حاملة مواصفات اللغة الواصفة، العالمة الشارحة"² فالعقل العربي - رغم اتصاله بالآخر - بقي فكراً أصيلاً في المبنى والمعنى والمنهج يقول الجابري: "الفكر العربي مثلاً هو فكر عربي، ليس فقط لكونه تصورات وآراء ونظريات تعكس الواقع العربي، أو تعبر عنه بشكل من أشكال التعبير، بل أيضاً لأنه نتيجة طريقة أو أسلوب في التفكير ساهمت في تشكيلها جملة معطيات، منها الواقع العربي نفسه بكل مظاهر الخصوصية فيه... الفكر بوصفه أداة للإنتاج النظري صنعتها ثقافة معينة لها خصوصياته، هي الثقافة العربية بالذات"³. فلا يمكن فهم التراث العربي والتعامل معه إلا من خلال العربية، و"الكتابة حول التراث لا بد أن تؤطرها قواعد إبستمية من رحم واقعها كبنية معرفية متراكمة... يفترض النظر إلى مضمون التراث وفق الآلية التالية: اللغة + المعرفة + العقيدة"⁴

اللغة العربية إذن ضرورة علمية لمن يريد فهم والثقافة الإسلامية وفهم بنية العقل العربي قال الشيخ الإبراهيمي: "اللسان العربي فهو لسان هذا الدين الذي نزل به كتابه، وهو - يعد - ترجمانه الحاذق الذي نقل الإسلام وما فيه من عقائد سامية، وحكم غالية وأخلاق عالية، وآداب قيمة إلى أمم أجنبية عن لغة هذا الدين وأخذهم بها أخذة السحر بكيفية تريهم أن الدين هو اللغة وأن اللغة هي

¹ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 13

² - بوعرفة عبد القادر، العرب أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل، ابن الندم للنشر والتوزيع الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت لبنان، ط 1، 2016، ص 148

³ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 12-13

⁴ - بوعرفة عبد القادر، المرجع نفسه، ص 145

الدين"¹، وما دامت كذلك فهي عالمية لأنّ هذا الدين عالمي وهي حية باقية ما دام الدين حي، و"بفضل حضارة الإسلام صارت أبعد اللغات وأوسعها أفقا وستظل العربية حيّة ما دام الإسلام حيا... محيت لغات، وبدلت لغات، وحرفت لغات، والعربية هي العربية، لم تمح ولم تغير ولم تبدل"². إنّها لغة الأمة الإسلامية رافقت انتشار الإسلام في مختلف أنحاء العالم، لغة كل مسلم عربي كان أم غير عربي، حتى الأعاجم، حملة العلوم، فإنّ روحهم العلمية عربية الفكر واللغة والثقافة، وأهم ما ساهم به العرب في الحضارة الإسلامية التي ورثت الحضارات السابقة هو اللغة والدين، فالدين الإسلامي بقي عربيّا، ولا يمكن أن يستغني عن لغة العرب، لأنّ القرآن وهو "كتاب عربي مبين" لا يمكن نقله إلى لغة أخرى دون المساس به، ف"العربية جزء ماهيته" كما يقول علماء أصول الفقه"³.

لا يمكن استنباط أحكاما شرعية من أدلتها التفصيلية دون معرفة علمية عميقة بالعربية وقوانينها، ولا يمكن فهم القرآن الكريم وتفسيره إلّا من خلال هذا الآلة، فالإمام الشافعي "يدرس القرآن والحديث ثم يتجه إلى دراسة اللغة والبلاغة والشعر... ويدرس الرياضيات والعلوم كأنّه يضبط فكره ومنطقه أو كأنّه يعد نفسه لشيء آخر إلى جانب الفقه أو لطراز آخر جديد من الفكر الفقهي، كل هذه الدراسات والتدريبات ستنتفعه فيما بعد عندما يشرع في التأليف في علم الأصول"⁴.

لهذا صارت هذه اللغة الآلة الضرورية لكل إبداع مهما كان لونه، وبقدر ما خدم العربي لغته واعتنى بها فقد ساهمت هي أيضا في تكوين فكره وتشكيل ماهيته، إنّ "اللغة العربية الفصحى، لغة المعاجم

¹ - الإبراهيمي محمد البشير، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج 1 دار الغرب الجزائري، بيروت، ط1، 1997، ص 109

² - السايح عبد الرحيم، العربية فلسفة وحياة، (م)، (س)، ص 40، 41

³ - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م)، (س)، ص 75 لهذا كانت الشرط الأساس لكل مجتهد، قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي: "طلبت الأدب لعشرين سنة لأخدم الفقه".

⁴ - مؤنس حسين، تاريخ موجز للفكر العربي، دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1996 ص 189

والآداب والشعر، وبكلمة واحدة لغة الثقافة...الأعرابي هو فعلا صانع العالم العربي، العالم الذي يعيشه العرب على مستوى الكلمة والعبارة والتصور والخيال، لا على مستوى العقل والوجدان"¹. قامت الحضارة العربية الإسلامية على النص، الذي صيغ بلسان عربي مبين، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف: الآية 2 وقال أيضا ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فصلت: الآية 3. ولا يمكن فهم هذه النصوص وتفسيرها وتأويلها إلا بلغة الأعرابي، فالقرآن الكريم "لا يفهم و يفسر بالتجزئة، فالآية تحمل معنى العام والخاص، الفصل والوصل، المفرد والمركب،... وأن المفسر إذا لم يكن مطلعاً باللغة العربية وكلام العرب الجاهلية لا يستطيع أن يلج إلى معناها"² لهذا أولى لها العلماء اهتماما كبيرا، لأنها روح حضارتهم وثقافتهم، ولا يمكن التعاطي مع مصادرها وفهمها واستنباط أحكامها إلا بمعرفة تامة بلغتها، وكلما كانت المعرفة بها أتم كانت المعرفة بنصها أتم، فهي الشرط الأول والأساس لكل مجتهد. ومن جهة أخرى فقد "أصبحت لغة عالمية بفضل القرآن الذي ضمن سلامتها وحفظ التفاهم بها. وكان من نتائج ذلك أن فتحت اللغة العربية صدرها لتراث الإنسانية وحفظت ما تركه الأقدمون"³.

لا يخفى على أحد أهمية هذه اللغة وقواعدها النحوية في تفریع المسائل الفقهية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والكثير من المسائل الفرعية الفقهية تختلف أحكامها عند الفقهاء وتفرق طرق استنباطها باختلاف قواعد النحو وقوانين اللغة، فالاختلاف اللغوي أنتج الاختلاف الفقهي، و"لاحظنا ذلك الدور البالغ الأهمية الذي تلعبه اللغة العربية في الدراسات والأبحاث الإسلامية، عقيدة وشريعة. إن كثيرا من الخلافات المذهبية، الكلامية والفقهية، مرده إلى اللغة، أي إلى ما تتوفر

¹ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص88

² - نقلا عن: بوعرفة عبد القادر، العرب أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل، (م، س)، ص134

³ - باشا أحمد فؤاد، التراث العلمي للحضارة الإسلامية، دار المعارف، ط 1، 1983، ص31

عليه اللغة العربية من فائض في الألفاظ، وما يتوفر عليه اللفظ العربي من فائض في المعنى، وما تتميز به التراكيب العربية، من تنوع"¹.

شهد العالم الإسلامي مذاهب وفرق كثيرة، مختلفة الاتجاهات (فلاسفة ومتكلمة وصوفية...) ومع كثرة الملل والتحلل والمذاهب واشتداد الصراع والخلاف الفكري والسياسي والمذهبي لعب التأويل دورا خطيرا وأصبح أمضى سلاح في عصر هائج مائج مضطرب سياسيا ومذهبيا، لأنه "يبحث في القضايا الإلهية والنصوص الدينية من جهة، ولأن حضارة العرب مثل غيرها هي حضارة تأويل، وتاريخها هو تاريخ صراع حول من يستحوذ على النصوص. وتاريخ الأفكار عندنا هو تاريخ مناظرات ومطارحات وردود وردود مضادة"²، ومن استحوذ على تأويل النصوص كان هو المسيطر على الساحة، والتأويل يجب أن يتقيد بقانون اللسان العربي. يقول ابن رشد: "ومعنى التأويل هو إخراج اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجويز"³، وعن التأويل تترتب تشريعات وأحكام تمس حياة المسلم الخاصة والعامة، لهذا احتل التأويل أهمية بالغة في الحضارة الإسلامية، فالنص "يجد حيويته في التأويل أكثر مما يجد حيويته في القراءة العلمية... واستثمار النص (الوحي) هو الذي صنع الحضارة والتاريخ"⁴.

بلغت العربية أوجها قبل الإسلام ولما بدأ العقل الإسلامي يؤسس حضارته وجد عناصر قوته تكمن في الدين واللغة لأنها "غنية جدًا، وزاد غناها بما أضيف إليها، دائمًا، من التعبيرات الجديدة التي تسربت فيها من اللهجات التي اتصلت بها، وانظر إلى المعجم الذي ألفه ابن سيده (ت1065م)

¹ - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م)، (س)، ص75

² - أحمد عبد المهيمن، إشكالية التأويل تصدير د عاطف العراقي ، الناشر دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية ط1 2002، ص 15

³ - ابن رشد أبو الوليد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعة من اتصال، تحقيق محمد عمارة، دار المعارف القاهرة، ط2، دت، ص35

⁴ - بوعرفة عبد القادر، العرب أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل، (م)، (س)، ص128

تجده مشتملاً على عشرين مجلداً¹. وكل إبداعات المسلمين كانت بواسطتها ومن خلالها، وحافظت على التراث الإسلامي والعالمي قروناً عديدة حتى أصبحت "المعبر الأكبر عن الدولة الإسلامية الجديدة حين هدأت الفتوح وتكلفها أجناس المسلمين، أو بمعنى أدق أكد الإسلام على دولية هذه اللغة. وكان في هذه اللغة تراث المسلمين جميعاً... وفي أعماق اللغة وفي جوانب النحو فلسفة إسلامية خالصة"².

وفي رده عن القائلين أنّ العرب تهتم باللغة دون الفكر وبالمبنى دون المعنى قال ابن جني: "وذلك أن العرب كما تُعنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها، بالشعر تارة، وبالخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتكلف استمرارها، فإنّ المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأفخم قدراً في نفوسها. فأول ذلك عنايتها بألفاظها. فإنّما لما كانت عنوان معانيها، وطريقاً إلى إظهارها أغراضها، ومراميها أصلحها وربّوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على القصد... فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسّنها وحمو حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا تَرَيْنَ أنّ العناية إذ ذاك إنّما هي بالألفاظ بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه [بها].." ³ فالعرب لا تهتم باللفظ وتُغفل المعاني، كما يتخيل البعض، بل إنّ قوة اللفظ لقوة المعنى، فالمعاني عندهم أقوى وأولى من الألفاظ، والعناية بالألفاظ إنّما هي خدمة المعاني. قال ابن جني: "فكأنّ العرب إنّما تحلّي ألفاظها وتدبجها، وتَشِيها، وترخفها عناية بالمعاني التي وراءها وتوضّلاً بها إلى إدراك مطالبها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ من الشعر لحكماً وإنّ من البيان لسحراً" فإذا كان رسول الله صلى الله عليه عليه يعتقد هذا في ألفاظ هؤلاء القوم، التي جعلت مصايد وأشراكاً للقلوب، وسبباً وسلماً إلى تحصيل المطلوب، عُرف بذلك لأنّ

¹ - لوبون غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعير، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012، ص 458

² - النشار علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1، دار المعارف، القاهرة، ط 9، دت، ص 55، 56

³ - ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، الجزء الأول، ص 215، 216، 217

الألفاظ خدم للمعاني والمخدوم لا شك أشرف من الخدم"¹. فالاهتمام باللغة اهتمام بالفكر، لأنّ الألفاظ خادمة للمعاني، وزيادة المبنى زيادة في المعنى.

إنّ اللغة آلة للفكر، وكلما كانت الآلة جيّدة كان الفكر أجود، ففوة أحدهما من قوة الآخر، فالألفاظ هي "الأدوات التي تصنع الأفكار، واللفظ الدقيق في موضعه المحسوب يقطع المعنى قطعاً، إنّه السّكين الحاد فإذا لم يكن حاداً مسنوناً فإنّ المعاني تبقى غامضة والفكر كله يصبح خبائياً"². فالفكر المبدع بحاجة إلى آلة يفكر ويعبر بها وهي اللغة، لأنّ "المعاني المعقولة بسيطة في بجوحة النفس، لا يحوم عليها شيء قبل الفكر، فإذا لقيها الفكر بالذهن الوثيق والفهم الدقيق ألقى ذلك إلى العبارة"³.

وعليه، فالعربية أرغانون العقل العربي، ساهمت في تكوينه، وأهم الأدوات التي صنعت العربي وعقله وقولبت تفكيره وحددت نظريته للكون لأنّ "اللغة ليست مجرد أداة للفكر بل هي أيضاً القلب الذي يتشكل فيه الفكر"⁴، وهو أيضاً ساهم في صنعها، لأنّ "العقل الإنساني هو الذي طوّع اللغة للعلم والحضارة"⁵. فالعربي -كغيره- يتعلم الكلمة والفكر، المبنى والمعنى في آن واحد، و يتداعيان في ذهنه بشكل آلي و"يتعلم أبناء العربية المنطق والتفكير المنطقي مع لغتهم بطريقة ضمنية فطرية"⁶. إننا نفكر باللغة ونتكلم بالفكر، ولغتنا تحدد نمط تفكيرنا ونظرتنا للعالم، وهذا ما ينطبق تماماً على

¹ - ابن جني، الخصائص، (م)، (س)، ص220

² - مؤنس حسين، تاريخ موجز للفكر العربي، (م)، (س)، ص363

³ - التوحيدي أو حيان، الإمتاع والمؤانسة، راجعه هيثم خليفة الطعيمي، ج1، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2011، ص253

⁴ - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م)، (س)، ص77

⁵ - الخطابي محمد العربي، اللغة العربية والتطور، (م)، (س)، ص29

⁶ - محمد مبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، 1975، ص278-279

العربي ولغته لأنّ "صناعة اللغويين والنّحاة قد قوّلت بدورها العقل الذي يمارس فعاليته في هذه اللغة وبواسطتها، العقل العربي الذي تغرسه الثقافة العربية في المنتمين إليها وإليها وحدها"¹.

لهذا كانت اللغة وعلومها أكثر المحطّات وقوفاً في تاريخ علماء العرب الفكريّ، استوقفت أذهانهم واستقطبت جهودهم، وتسابقوا للتفكّر في حقيقتها، وإدراك ماهيتها، وتنبهوا إلى أهمية البحث اللغوي وضرورته، و"أدرك أغلب الفلاسفة العرب القدامى أهمية اللغة في البحث المنطقي والفلسفي وبذلك كانت لهم إضافات على التراث اليوناني الذي أخذوا عنه، بل إنهم سبقوا المناطق والفلاسفة المحدثين والمعاصرين في إدراك ما للبحث اللغوي من قيمة كبرى في البحث الفلسفي"². لهذا كانوا يستهلون أعمالهم العلمية بالمفهوم اللغوي أولاً، ولازالت هذه التقاليد سارية حتى اليوم، و"أدرك المناطق والفلاسفة العرب الأوائل ضرورة البدء بتوضيح لغوي للمصطلحات الفلسفية كوسيلة أو مقدمة ضرورية لتوضيح الأفكار والمشكلات الفلسفية والمنطقية"³.

إنّ الإنسان كائن رامز وحيوان ناطق، واللغة أهم خاصية بشرية فهي ترجمان الفكر، يقول ابن جني: "اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁴ وهذا التحديد لمعناها يعدّ إنجازاً كبيراً لعلم اللغة في التراث العربيّ وفي الفكر اللغويّ، فهي نسق رمزي يفيد التواصل والتعبير عن المقاصد. قال الفارابي: "إن الجماعة الإنسانية الكاملة على الإطلاق تنقسم أما والأمة تتميز عن الأمم بشيئين طبيعيين: بالخلق الطبيعية والشميم الطبيعية وبشيء ثالث وضعي، وله مدخل ما في الأشياء الطبيعية، وهو اللسان أعني اللغة التي تكون بها العبارة"⁵. فهي مؤسسة اجتماعية تحدد الخصوصية الثقافية

¹ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه ص 89

² - زيدان محمود فهمي، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ص-153

³ - زيدان محمود فهمي، في فلسفة اللغة، ص 158.

⁴ - ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، (م)، (س)، ص 33.

⁵ - الفارابي أبو نصر، السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات، تحقيق فوزي متري نجار، المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان، ط1،

للأمة، فنحن لا نعيش في عالم مادي فقط بل في عالم لغوي رمزي لأننا كائنات بيوثقافية. وتجلى أهمية اللغة عند الفارابي في تصنيفه للعلوم ولتراتب أهل المدينة الفاضلة الخمسة وهم الأفاضل وذوو الألسن والمقدرون والمجاهدون والماليون، وما جعل أهل اللسان في المقدمة هو دورهم الفعال في بناء المدينة الفاضلة، فالخطابة هي: "جودة إقناع الجمهور في الأشياء التي يزاوها الجمهور بمقدار المعارف التي لهم ومقدمات هي في بادئ الرأي مؤثرة عند الجمهور"¹. وهنا يختلف الفارابي عن أفلاطون (الذي تأثر به في مواطن كثيرة). لأن أفلاطون رأى أن اللغة أداة خطيرة حينما يساء استخدامها، وأداة للتملق وتشوه الحقيقة "أعذب الشعر أكذبه" لهذا طرد الشعراء من جمهوريته. عكس الفارابي الذي أكد على أهميتها وضرورتها، فكان فيلسوفاً أصيلاً مستقلاً في التفكير .

أما أبو حامد الغزالي فأكد أن اللغة والنحو مقدمات للعلم بكتاب الله وسنة رسوله، وليست هذه العلوم من العلوم الشريعة ولكن يلزم الغوص فيها لفهم الشرع، وقبل أن يخوض في أبحاثه المنطقية والفلسفية يبدأ بأبحاث لغوية، إننا "نلاحظ في كتابه (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) أنه يقدم لبحثه في أسماء الله وصفاته بعدة فصول بمثابة مقدمة يجعل عناؤها (في السوابق والمقدمات) يتناول فيها مباحث لغوية بحتة يقول مثلاً إنه يوجد شيء واحد وله أكثر من اسم فتسمي هذين اسمين مترادفين ولا يختلف مفهومهما ولا يتفاوت بزيادة أو بنقصان وإنما تختلف حروفهما فقط (الليث هو الأسد) وتوجد أسماء أخرى ليست مترادفة رغم أنها تدل على شيء واحد، ذلك لأن مفهوماتها مختلفة لاختلاف معانيها"².

¹ - الفارابي أبو نصر، كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت لبنان، ص 148 فهو "أرسطوطاليسي في المنطق والطبيعات، أفلاطوني في الأخلاق والسياسة، أفلوطيني في فلسفة ما بعد الطبيعة"¹. الفاخوري حنا وخليل الجر تاريخ الفلسفة العربية، الجزء الثاني، دار الجيل بيروت، ط 3، 1993، ص 97

² - زيدان محمود فهمي، في فلسفة اللغة، (م، س)، ص 156-157

كان العرب في جاهليهم يملكون الكلمة والسيف، والشاعر هو الناطق الرسمي للقبيلة يعبر عنها، وإذا بالغ في الفخر والاعتزاز زادت الرهبة في قلوب أعداء قبيلته، إنَّ "الشاعر- هو المفكر الأديب الفنان- لسان قومه وضمير أمته، وإذا نبغ في القبيلة شاعرا احتفوا به وفاخروا به غيرهم، فقد وجدوا من يعبر عن ضميرهم، وقالوا أحسن الشعر أصدقه"¹. و بلغت العربية عندهم الأوج، وكان العربي يلهج بالشعر، الذي بلغ معهم "الذروة في القرن الذي سبق ظهور محمد(عليه السلام)، ونشأ عن ذلك أن صارت لغة الشعراء الفصحى عامَّةً، وأن صُهرت لهجات بلاد العرب المختلفة في لغة واحدة...والعرب وحدهم قرضوا من الشعر ما لم تقرضه أممُ العالم مجتمعةً"²، لهذا جاء الإسلام بمعجزته الخالدة وهي "القرآن الكريم" معجزة لغوية أفحمت البلغاء وأرباب اللّغة من العرب الجاهلين لأنّ كل رسول عليه وسلم خاطب قومه بلسانهم؛ قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ إبراهيم، الآية 4. ونبينا عليه السلام أحسن الناس نطقا بالضاد، حتى قال عليه السلام: "أنا أفصح العرب بيد أي من قريش"، كل ذلك زاد العربية الثرية ثراء وقيمة بين اللغات، خاصة بعدما "بنى التّص القرآني كلمات غير عربية فعزّها"³، وهذا جعلها لغة حيّة وستبقى كذلك، فكانت إحدى مقومات الذات العربية والحضارة الإسلامية، لأنّ "القرآن الكريم استعمل نفس ألفاظ لغة الجاهلين وصنع منها لغة جديدة، واللغة الجديدة صنعت حضارة جديدة"⁴.

شكلت العربية رباطا قويا وحدّ أقطار الأمة الإسلامية، لأنّ الذين يتكلمون لغة واحدة يربطهم رباطا متينا وإن كان غير مرئي، ف"اللغة التي قيل فيها هذا الشعر كانت رباطاً مقدساً جمع شعوب العروبة والإسلام بعضها إلى بعض...ورجال الفكر اجتهدوا في الحفاظ على هذه الوحدة ولم يفرطوا قط في

¹ - مؤنس حسين، تاريخ موجز للفكر العربي، (م)، ص 21

² - لوبون غوستاف، حضارة العرب، (م)، ص 462

³ - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (م)، ص 87

⁴ - مؤنس حسين، تاريخ موجز للفكر العربي، (م)، ص 363

تذكير المسلمين بضرورة الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية"¹، التي وحدها الدين واللغة والتاريخ، وشاعت لغة الدين الجديد، وهي العربية التي لَوّنت كل الشعوب التي أصبحت تحت رايته بلون فكريّ واحد متعدّد الأطياف، هو الفكر الإسلامي، و"صارت لغة العلوم والآداب للعرب وغير العرب حقبا طويلة ما بين أقصى المغرب وأقصى المشرق وما تزال لغة أدب وعلم في الأمم الإسلامية غير العربية"².

04. اللغة العربية وعلومها الأولى في تصنيف العلوم العربية والإسلامية: إنّ تصنيف العلوم يكشف عن الحياة العقلية عند الأمم فالمعلم الأول ومثل الثقافة اليونانية أرسطوطاليس، جعل المنطق الآلة الأولى (Organon) والضرورية لجميع العلوم، أما فلاسفة العرب فصنّفوا علم اللغة في المرتبة الأولى في سلّم علومهم، لأنّ الإحاطة بما شرط أساسي لكل علم وصنعة، لقد قال شُراح أرسطو إنّ المنطق عنده هو أركان (الآلة) العلوم كلها. لكننا نرى أنّ المناطق العربية أعلنوا في وضوح وجلاء أنّ علم اللغة يعتبر مدخلا أساسيا حتى لعلم المنطق ذاته، بحيث يمكننا القول أنّ علم اللغة هو أركان المنطق عند المناطق العربية"³. وهذا التصنيف يدل على الأهمية البالغة للغة في الثقافة الإسلامية القائمة على النص، الذي لا يمكن فهمه إلا بها ومن خلالها فقط، و"لغة الأعراب هنا هي اللغة المطلوبة التي وحدها تفي بالغرض"⁴.

في كتابه "إحصاء العلوم" بدأ الفارابي الفصل الأول بعلم اللسان وفروعه المختلفة من لغة ونحو وصرف وغيرها يقول: "الأول علم اللسان وأجزائه، والثاني علم المنطق وأجزائه، والثالث في علوم التعاليم وهي العدد والهندسة وعلم المناظر وعلم النجوم التعليمي وعلم الموسيقى وعلم الأثقال وعلم

¹ - مؤنس حسين، المرجع نفسه، ص 120

² - السايح عبد الرحيم، العربية فلسفة وحياة، مجلة اللسان العربي، العدد الخامس، الرباط، ص 41

³ - زيدان محمود فهمي، في فلسفة اللغة، (م، س)، ص 155

⁴ - الجابري محمد عابد، المرجع نفسه، ص 85

الحيل. والرابع في العلم الطبيعي وأجزائه وفي العلم الإلهي وأجزائه، والخامس في العلم المدني وأجزائه وفي علم الفقه وفي علم الكلام... وبهذا الكتاب يقدر الإنسان على أن يقايس بين العلوم فيعلم أيهما أفضل وأيهما أنفع وأيهما أتقن وأوثق وأقوى"¹، والأكد أن العلم الأول هو الأفضل والأنفع.

إنّ علوم البيان آلة ضرورية لتصحيح ألفاظ وتقويم العبارات، والمصدر الأساس الذي ترد إليه جميع المعارف الخاصة بغاية صياغة علاماتها اللفظية وتحقيق دلالاتها الاصطلاحية، لذا وضع الفارابي "علم اللغة أول العلوم، ويسميه "علم اللسان" يلهمه علم المنطق... ويعتبر الفارابي أول من رأى ضرورة علم اللغة لدراسة المنطق. ويشير إلى علم اللغة بفروعه المختلفة من نحو وصرف وشعر وكتابة وقراءة، ويعطي مبحثاً في أنواع الألفاظ وقواعد كل نوع ويتوسع في كتاب الحروف في أبحاث لغوية بحتة"²

أكد الفارابي على أهمية صناعة المنطق، وعلى صناعة النحو أيضاً، يقول: "وصناعة المنطق تناسب صناعة النحو: ذلك أن نسبة صناعة المنطق إلى العقل، والمعقولات (المعاني) كنسبة صناعة النحو إلى اللسان والألفاظ، فكل ما يعطيناه علم النحو من القوانين في الألفاظ فإن علم المنطق يعطينا نظائرها في المعقولات"³. وعليه فالنحو (اللغة) والمنطق آلات ضرورية تفكير عربي.

05. اللغة العربية لغة العلم والحضارة والحفاظة للتراث الإسلامي: هناك علاقة جدلية بين العلم واللغة، فبقدر ما "تأثرت اللغة بالعلم وفتوحاته ومناهجه ووسائله المادية والمعنوية فقد أثرت فيه إلى حد كبير بما أمدته به من رموز وصور وتراكيب لفظية"⁴. فالعلم موضوع ومنهج ولغة.

كانت الإبداعات العربية أوج ما بلغته الإنسانية وعنوانا للحدث في العصور الوسطى، وشغلت مساحة تاريخية تزيد على ثمانية قرون، وملأت الفراغ الحضاري منذ العصر السكندري في مصر حتى

¹ - الفارابي أبو نصر، إحصاء العلوم، مركز الإنماء القومي، بيروت لبنان، 1991، ص 07

² - زيدان محمود فهمي، في فلسفة اللغة، (م)، (س)، ص-155

³ - الفارابي، إحصاء العلوم، (م)، (س)، ص 13

⁴ - الخطابي محمد العربي، اللغة العربية والتطور، مجلة اللسان العربي، العدد الأول، يونيو 1964، ص 28

عصر النهضة وهذه الإبداعات جاءت بلسان عربي، فالعربية "عرفت أساليب جديدة مكنتها من التعبير عن الأفكار الفلسفية والعلمية التي لم تكن قد وُضعت لتعبّر عنها. وقد ساعدها على ذلك ما لها من مرونة وطواعية في التصريف والاشتقاق فلجأ النقلة في الدرجة الأولى إلى اللغة العربية ونحتوا مفردات لا نزال نستعملها... وكذلك القول في الألفاظ الجديدة التي تزخر بها كتب الكيمياء والطب والرياضيات والنجوم وغيرها"¹.

أصبحت العربية الآلة الضرورية للنهضة العلمية العربية، وقدمت منذ "البداية الأداة الكافية للتعبير العلمي الدقيق ولم تحتل العربية هذه المكانة الرفيعة بذاتها، ولكن الموقع المركزي للعربية بوصفها لغة الدين الإسلامي والإدارة، هو الذي أدى إلى تطويعها لتلائم المتطلبات العلمية"². ولما كانت الحواضر الإسلامية مراكز للأنوار العلمية فقد كان لزاما على طالب العلم في آنذاك أن يكون عالما باللغة العربية وعلومها، فهي "لغة للكتابة والتفكير على درجة عالية من الرقي من حيث آلياتها الداخلية"³. و روجر بيكون (1214-1294)، وأحد علماء أوروبا في العصور الوسطى الذين "درسوا علوم العرب وحملوها إلى الأجيال الأوروبية التالية، كان يعجب ممن يريد أن يبحث في الفلسفة وهو لا يعرف اللغة العربية، كما أنه اعترف بأن الكتب الإسلامية العربية كانت مصدر العلوم في عصره، واحتكرت المؤلفات العلمية كلغة عالمية فلا تكاد تنشر إلا بها وأن كتابات أرسطو لم تفهم ولم تلق رواجاً في الغرب حتى أوضحتها كتابات ابن سينا وابن رشد والكندي وغيرهم"⁴.

سميت علوم الحضارات السابقة باسم الجنس (كالعلم الهندي أو الفارسي أو اليوناني) لكن علوم الحضارة الإسلامية التي أنتجتها أجناس مختلفة، سميت بالعلم العربي أي "العلوم التي كتبت بالعربية،

¹ - الفاحوري حنا و خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية (م، س)، ص 34

² - شاخت جوزيف شاخت جوزيف وكليفورد بوزورث، تراث الإسلام ج2، ترجمة محمد زهير السمهوري وآخرون، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص 127

³ - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي (م، س)، ص 79

⁴ - باشا أحمد فؤاد، التراث العلمي للحضارة الإسلامية (م، س)، ص 32

وتحت ظلّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة في البلاد التي انتشر بها العرب، هي علوم عربيّة. حضارة كانت ثمرة جهود شعوب كثيرة متباينة الأجناس، ولكن الإسلام صاغها في وحدة روحيّة، وخلق منها مجتمعا واحدا. كما أنّها حضارة مدينة بالكثير الكثير إلى سحر اللغة العربيّة وروعته¹. وهذه اللغة هي التي حافظت على الهوية والتراث الإسلامي.

كان العرب فكريا وعلميا في طليعة الأمم خلال العصور الوسطى، وتجاوزوا إبداعاتهم الأمم السّابقة بكثير، و"خلفوا لنا تراثا عظيما بكلّ المقاييس والموازين، سواء نظرنا إليه من حيث الكمّ أم الكيف"². وهذا التراث الثري جاء بلسان عربي، بالرغم من تنوع خطابه و"بات من الممكن، مع العلم العربي، أن نقرأ في لغة واحدة، ترجمات الإنتاج العلمي القديم والأبحاث الجديدة على السواء... ابتداء من القرن التاسع كان للعلم لغة هي العربيّة، حتّى إنّ هذه اللّغة بدورها أخذت بعدا كونيا، فلم تعد لغة لشعب بل لعدة شعوب ولا لغة لثقافة معينة إنّما لغة لكل المعارف. وهكذا فتحت معابر لم تكن موجودة من قبل، تسهل الاتصال المباشر بين المراكز العلمية المنتشرة ما بين حدود الصين والأندلس"³. فالعربية لغة العلم والحضارة بخلاف ما يُروج له الكثير من الجاهلين بها.

أصبحت العربية اللّغة العلميّة العالميّة خلفا للّغة اللاتينيّة، وهذا أمر طبيعي، لأنّ العقل العربي أبدع علوما وفنونا وفلسفات، و"أضحت اللّغة العربيّة أداة العلم الإسلامي الرئيسيّة وقامت في المشرق بالدور الذي قامت به اللّغة اللاتينيّة في الغرب... إنّ اللّغة العربيّة قدّمت منذ البداية الأداة الكافية للتعبير العلمي الدقيق. ولم تحتل العربيّة هذه المكانة الرّفيعّة بذاتها، ولكن الموقع المركزي للعربيّة

¹ أبو خليل شوقي، الحضارة العربية الاسلامية، (م.س)، ص 06، 07 أي "العلم الذي ازدهر من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر للميلاد في البلدان التي سادها الإسلام" ألدوميلي، العلم عند العرب وأثره في تطور الفكر العالمي، ترجمة، عبد الحليم النجار ومحمود يوسف موسى، الناشر دارا لقلم، ط1، 1962 ص144

² -مرحبا محمد عبد الرحمن، الجامع في تاريخ العوم عند العرب، ص13

³ -راشد رشدي، موسوعية تاريخ العلوم العربية، (م. س)، ج1، ص 16 إنّ علماء العرب الأوائل "صاغوا في لغتهم الحيّة التي لم تمت فيها كلمة، تعابير علميّة مثاليّة" هونكه زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية، فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجليل، بيروت، ط8، 1993 ص276

بوصفها لغة الدين الإسلامي والإدارة، هو الذي أدى إلى تطويعها لتلائم المتطلبات العلمية¹. وإذا أصبحت اللغة اللاتينية في صف اللغات ضعيفة منذ أن هبطت حضارتها فإنّ العربية لا تزال حية. خاتمة: شكّل مشروع جمع اللغة العربية وتقعيدها قفزة علمية نوعية في تاريخ الثقافة الإسلامية، وتمّ الانتقال بها من اللاعلم إلى العلم، وتأسست علوم اللسان كعلوم عربية أصيلة موضوعاً ومنهجاً، وهي إحدى الانجازات العلمية الأولى للعقل العربي، ومفخرة لعلماء العرب الأوائل الذين وضعوا الآلة الضرورية للعقل العربي حتى يجيد التفكير والتفكير والتعبير عن كل إبداعاته المختلفة إنّ اللغة العربية هي لغة القرآن والحديث ولغة الشعر والعلوم العقلية والنقلية، ولغة الأمة الإسلامية رافقت انتشار الإسلام في مختلف أنحاء العالم، فهي لغة كل مسلم عربي كان أم غير عربي، واستطاعت-عبر القرون المتتالية- أن تحافظ على بقائها وتوازنها الحي، وامتدت اللغة العربية من تخوم الصين إلى سواحل الأطلسي، فهي إحدى اللغات العالمية الحية التي لم تمت منها كلمة واحدة ، وستبقى كذلك ما بقي هذا الدين فهي أطول اللغات عمراً. وقد وبذلك ساهمت في بناء الذات العربية المتميزة، وفي تكوين العقل العربي الذي فكر وكتب بها كل إبداعاته العلمية والفكرية والأدبية. حافظت على التراث الإسلامي والإنساني الذي خلّفته الحضارات السابقة من خلال الترجمة التي كانت أغنى تجربة في تاريخ الفكر الإنساني دامت ثلاثة قرون كاملة، امتدت من القرن الثامن إلى القرن العاشر ميلادي، ثم أعقبتها في الاتجاه المعاكس تجربة نقل علوم العرب إلى الغرب على مدى قرنين من الزمان، هما القرنان الميلاديان الثاني عشر والثالث عشر.

وكما تركت علوم العرب أثارها في التراث العلمي العالمي، تركت اللغة العربية آثارها في المراجع العلمية وفي اللغات العالمية، خاصة المصطلحات العلمية، فعلم الفلك مثلاً مملوء بالتعابير العربية.

¹ -شاخت جوزيف وكليفورد بوزورث، تراث الاسلام، ج 2، (م.س)، ص 127

قائمة المصادر والمراجع

◆ القرآن الكريم

المصادر والمراجع

1. ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ج1.
2. ابن رشد أبو الوليد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال، تح محمد عمارة، دار المعارف القاهرة، ط2، دت
3. ابن حزم أبو محمد علي، الإحكام في أصول الأحكام، تح أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ج1
4. أحمد عبد المهيمن، إشكالية التأويل تصدير د عاطف العراقي، الناشر دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية ط1، 2002
5. الإبراهيمي محمد البشير، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج1 دار الغرب الجزائري، بيروت، ط1، 1997
6. البندر عبد الزهرة، منهج الاستقراء في الفكر الإسلامي، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1992
7. الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط10، 2009
8. ألدوميلي، العلم عند العرب وأثره في تطور الفكر العالمي، تر، عبد الحليم النجار ومحمود يوسف موسى، الناشر دارا لقلم، ط1، 1962
9. المصباحي محمد، الذات في الفكر العربي الإسلامي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2017
10. النشار علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، دار المعارف، القاهرة، ط9، دت

11. الفارابي أبو نصر، إحصاء العلوم، مركز الإنماء القومي، بيروت لبنان، 1991
12. الفارابي أبو نصر، السياسة المدنية، تح فوزي متري نجار، المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان، ط1 1964
13. الفارابي أبو نصر، كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت لبنان
14. الفاخوري حنا و خليل الجر تاريخ الفلسفة العربية، الجزء الثاني، دار الجيل بيروت، ط3، 1993
15. الشتواني أحمد محمد، موسوعة عباقرة الحضارة العلمية في الإسلام، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، ط1، 2007،
16. الربحاهي، عبد اللطيف أحمد، المنهج الاستقرائي، دارا لسلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2012
17. التوحيدى أو حيان، الإمتاع والمؤانسة، راجعه هشام خليفة الطعيمة، الجزء 1، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2011
18. باشا أحمد فؤاد، التراث العلمى للحضارة الإسلامية، دار المعارف، ط1، 1983
19. بوعرفة عبد القادر، العرب أسئلة الماضى والحاضر والمستقبل، ابن النسلم للنشر والتوزيع الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2016
20. ديورانت ول وايريل، قصة الحضارة، ج 2 من المجلد 4، ترجمة، محمد بدران، دار الجيل للنشر والطبع والتوزيع، بيروت، دط، دت
21. دي بور ت ج، تاريخ الفلسفة فى الإسلام، ترجمة، محمد عبد الهادى أبو ريدة، مكتبة النهضة المصرية ط5، دت
22. هونكه زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل، بيروت، ط8، 1993

23. زيدان محمود فهمي، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985
24. لوبون غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012
25. مؤنس حسن، تاريخ موجز الفكر العربي، دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1996
26. منتصر عبد الحليم، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 2012
27. محمد مبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، 1975
28. مرحبا محمد عبد الرحمن، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط2، 1988
29. صليبا جورج، العلوم العربية وقيام النهضة الأوروبية، ترجمة محمد حداد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط1، 2011
30. راشد رشدي، موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1997
31. شوقي أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر - دمشق، 1996
32. شاخت جوزيف وكليفورد بوزورث، تراث الاسلام ج2، ترجمة محمد زهير السمهوري وآخرون، عالم المعرفة، الكويت، 1998
33. غريبن جون، تاريخ العلم، ترجمة جلال شوقي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الجزء الأول، دت، 2012

المجلات و الدوريات

34. الخطابي محمد العربي، اللغة العربية والتطور، مجلة اللسان العربي، العدد الأول، يونيو 1964
- السايع عبد الرحيم، العربية فلسفة وحياة، مجلة اللسان العربي، العدد الخامس، الرباط.

